عيد الثمانين

شعر: د. حجر أحمد البنعلي

مناسبة القصيدة: ليس من عادة الشاعر، ولا الذين هم من جيله من أبناء الخليج، الاحتفال بأعياد ميلادهم. ولكن لما بلغ الشاعر الثمانين من العمر في ٨-٢-٢٠٢٣، فاجأته عائلته بحفلة عائلية خاصة لتلك المناسبة. وبعد ذلك الحفل، جلس الشاعر في مكتبته، يستعرض ذكرياته، وما مر على حياته من أحداث عبر العقود، فأثارت تلك الذكريات ريحَ مشاعره، التي دفعت شراع سفينة الشعر، فانطلقت تمخر في عباب بحر الذكريات، حتى هدأت الريح، فرست السفينة:

عيدُ الثمانينَ من عُمري أُحَيّيهِ ... بِلا خِضابٍ لأنّي لستُ أُخفيهِ
في الرأسِ شعَّ ضِياءٌ مِن تَبَسُّمِهِ ... كأنَّه عَلَمٌ شَعَّت أعاليهِ
عندَ الثمانينَ رُشدُ المَرءِ مُكتَمِلٌ ... العِلمُ أولُهُ والحِلمُ ثانيهِ
سأُترُكُ الشِّعرَ يشدو ما أُحِسُّ بهِ ... وللفُؤادِ سُرورٌ في قَوافِيهِ
تجاربُ العُمرِ أحكامٌ يَجودُ بِها ... نَثرًا وشِعرًا تَراها في لآلِيهِ

ولّى الشبابُ زَمانًا لستُ أَذكُرُهُ ... أَيامُه انصرمت ضَاعَت لياليهِ
عاشَت محاسِنُهُ عندي فأذكُرُها ... لكن نَسِيتُ بِلا جُهدٍ مَساوِيهِ
هل أذرِفُ الدَّمعَ أَبكيهِ وأندُبُهُ؟ ... أليسَ كلُّ كِبارِ السنِّ تَبكيهِ؟
ولّى شَبابي وهذا الشيبُ لي قدرٌ ... أرضى بهِ سُنَّةً، ما قُمتُ أَبكِيهِ
واذكر (ببولدرَ) أيامَ الصِّبا سَلفَت ... حُبٌّ وأُنسٌ بها، ما كنتُ أُخفِيهِ
وربةُ الحُسنِ في صَفّي أَراقِبُها ... كتبتُ فيها قَصيدًا لستُ أَروِيهِ
ما باحَ شعري بأسرارِ الهوى أبَدً ... أما الدَّموعُ فلا تُخفي وتُبديهِ
ذِكرُ الصِّبا طارِدٌ لِلنومِ يُبعِدُه ... وإن غفوتُ فطيفُ الأمسِ يُسلِيهِ
عصرٌ مَضى وانقضت أيَّامُ بَسمَتِهِ ... فالشَّيبُ مُرٌّ ولا شيءٌ يُحلّيهِ

إنّي أَحِنُّ إلى طِبٍّ أُفيدُ بهِ ... من كانَ ذا مَرضٍ عِندي يُعانِيهِ
قد كنتُ أولَ من دَاوى الفؤادَ هُنا ... مَشفى الرميلةِ صرحٌ كنتُ آسِيهِ
أَحُبُّ للناسِ خَيرًا ما استطعت له ... فالقلبَ أرعى وربُّ العرشِ بارِيهِ
كم كنتُ أسهَرُ أَرعى قلبَ ذِي مَرضٍ ... حتى يَنالَ مريضي ما يُرجّيهِ
شَغِفتُ بالطبِّ طِفلاً كنتُ أعشَقَهُ ... فالعِلمُ حاضِرهُ والسحرُ باديهِ
أقسمتُ باللهِ لولا الحُبُّ يدفَعُني ... لخدمةِ الخَلقِ ما صارعتُ أبغيهِ
ما صحَّ طِبٌّ إذا ما العِلمَ أسنَدَهُ ... فالجَهلُ يُبعِدُهُ والعِلمُ يُدنِيهِ

أخلصتُ للناسِ فيما كنتُ أُحسِنُهُ ... سامَحتُ من لامني والعُذرُ أُبدِيهِ
طوعتُ قلبي الذي ما قُدَّ من حَجرٍ ... غيرُ الحنانِ وغيرُ الحُبِّ ما فيهِ
لم يُدرِكِ الناسُ إخلاصي لصِحّتِهم ... معْ أنَّ كُلَّ قرارٍ صُغتُ يُبدِيهِ
كم مُخلِصٍ لامتِ الأقوامُ حِكمَتَهُ ... وخائنٍ كاذبٍ ظَلّت تُوالِيهِ
دهرٌ من العُمرِ أَخشى أن أُسَمِّيَهُ ... لم أشكُ إلا لربي ما أُقاسِيهِ
قد ماتَ قلبي أسىً مما أعانِيهِ ... بعد الثمانينَ طِبّي ليس يُحييهِ
شيخٌ كَبيرٌ بِبحرِ الغَيبِ مَركَبُهُ ... ما تاهَ في اليَمِّ؛ نورُ اللهِ هادِيهِ
أما المَماتُ فعِندَ اللهِ موعِدُهُ ... لابدَّ للمرءِ يَومًا أن يُلاقِيهِ
تأتي الثمانونَ تُدنِيهِ إلى سَفرٍ ... بلا رُجوعٍ فينأى عن مُحبِيهِ

في بيت علمٍ وفضلٍ قد نشأتُ بهِ ... فسِيرتي أسفرت عن ذا وتُبديهِ
أبكي أبايَ وَلن أنسى فضائِلَهُ ... سَكَبتُ بالدَّمعِ شِعري في مَراثِيهِ
وكم بَكى فُرقَتي إذ كنتُ مُغتَرِبًا ... يدعو ليَ اللهَ فاحمرت مآقِيهِ
أحببتُهُ وَوَددتُ العمرَ أُسعِدُهُ ... فطِعتُهُ راغِبًا ما كنتُ أَعصِيهِ
قد كانَ خيرَ أبٍ في الأرضِ أعرِفُهُ ... فكلُّ فَضلٍ عَرَفنا كان يَحوِيهِ
ورَثتُ من صِدقِهِ خُلْقًا أورِّثُهُ ... للنسلِ بعديَ أجيالاً فتُحيِيهِ
ما ماتَ مَن نسلُهُ أحيَا مكارِمَهُ ... كأنَّهُ بيننا والناسُ تُطرِيهِ
أمّي الحَبيبةُ كم قاست لتُسعِدَني ... فالدهرُ أقعدَها عَجزًا تُقاسِيهِ
فهيَ المُسِنَّةُ قَرنُ العُمرِ أنهكَها ... حُزني عليها شديدٌ كيفَ أُخفِيهِ؟
نَعِمتُ بالحُبِّ من أمّي ومن أبتي ... فالقلبُ ضَمَّهما، لم يَبرَحا فِيهِ

خواطري قد تمادى الشعرُ يَنثُرُها ... أثارها العُمرُ فاستحلى تمادِيهِ
مشاعرٌ ضَمَّها صدري ليكتُمَها ... والشعرُ أطلَقها دُرًّا تُسلّيهِ
فالشعر كالطيرِ يعلو في السما طَرَبًا ... كالنَّسرِ والصقرِ في عزٍّ وفي تِيهِ
فالشعرُ من خاطري والحِلمُ يُمليهِ ... واللبُّ يُدرِكُ ما تَعني مَعانِيهِ
ما شابَ عقلي بفضلِ اللهِ أَحمَدُهُ ... كالبحرِ عُمقًا وما جَفّت نَواحِيهِ

٨-٢-٢٠٢٣